الفَصلُ الأوّل

في محيط الثقافة

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الثقافة .

المبحث الثاني : خصائص الثقافة الإسلامية

المبحث الثالث : أهمية دراسة الثقافة الإسلامية .

المبحث الأول

تعريف الثقافة

في الاستعمال اللغوي :

استعمل العرب كلمة (الثقافة) للدلالة على معان متعددة : منها الحذق ، ومنها الفطنة والذكاء . ومنها سرعة التعلم والضبط ، ومنها الظفر ، بالشيء والتغلب عليه ، ومنها التقويم والتهذيب ، يقال : ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً إذا حذقه ، ويقال للرجل ثقف ، بتسكين القاف وبكسرها وبضمها ، ويقال للمرأة ثقاف[1] ، ويقال : رجل ثقف كقفٌ إذا كان ضابطاً لما يعلم قائماً به . قال تعالى في محكم تنزيله ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾[2] وقال جل من قائل ﴿ فَأَمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾[3] ذكر القرطبي في تفسيره أن (ثقف) في الآيتين الكريمتين تدل على الأسر ، والظفر بالعدو فقال : أي تأسرونهم وتجعلونهم في ثقاف ؛ أو تلقونهم بحال ضعف ، وتقدرون عليهم وتغلبونهم ، وهذا المعنى لازم من اللفظ لقوله تعالى في الآية الثانية ﴿ فِي الْحَرْبِ ﴾ ثم قال : والثقاف في اللغة ما يشد به القناة ونحوها .

واستشهد ببيت للنابغة الذبياني :

تدعو قعينا ، وقد عض الحديد بها
عض الثقاف على صم الأنابيب[4]

---

(١) اللسان لابن منظور ، القاموس المحيط للفيروز أبادي .

(٢) البقرة/ ١٩١ ، النساء/ ٩١ .

(٣) الأنفال/ ٥٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٣٠ بتصرف يسير ، والقعن (بالتحريك) قصر فاحش في الأنف ، وقعين : حي ، مشتق منه ، وهما قعينان : قعين في بني أسد وقعين في قيس عيلان . والأنابيب جمع أنبوبة وهي كعب القصبة والرمح .

وتستعمل كلمة التثقيف استعمالاً حسياً مادياً واستعمالاً آخر معنوياً ، أما الاستعمال المادي فكقول القائل : تثقيف الرماح أي تسويتها وتقويم اعوجاجها ، وأما الإستعمال المعنوي فكقولنا : تثقيف العقل .

في الاستعمال الاصطلاحي :

في العهد الروماني استعملت كلمة الثقافة للدلالة على العلوم الإنسانية التي تستقل بها كل أمة عن غيرها من الأمم ، كعلوم الدين واللغة والآداب التي لها فلسفة معينة ، واتجاه مميز ، كما استعملت للدلالة على الفنون غير العملية وغير الطبيعية .

وفي عصر النهضة الأوروبية أصبح اللفظ يطلق على الآداب ، والفنون[1] .

يقول (هنري لاوست):(إن الثقافة هي مجموعة الأفكار والعادات الموروثة التي يتكون فيها مبدأ خلقي لأمة ما ، ويؤمن أصحابها بصحتها وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها) .

ويعرف (ارنست باركر) الثقافة بـ (أنها ذخيرة مشتركة لأمة من الأمم تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ طويل ، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر واللغة) .

ومن التعريفات المنتشرة لديهم :

(إن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين)[2] .

وقد بين ماثيو أرنولد في كتابه المسمى (الثقافة والفوضى (١٨٦٩ م) أن الثقافة هي : (محاولتنا الوصول الى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الانساني ، مما يؤدي الى رقي البشرية وقال : إن الدين من العناصر التي

---

(١) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٣٦٩ .

(٢) وهو تعريف ادوارد تايلور (١٨٧١) انظر كتاب ركائز علم الاجتماع ص ١٦٢ .

استعار بها الإنسان في محاولته الوصول الى الكمال)[1] .

ونحن ـ المسلمين ـ ننظر إلى هذا التعريف بعين الناقد البصير الخبير بما يقبل وبما يدع ، ذلك لأن ديننا الحنيف ليس مجرد عنصر من العناصر التي يستعين بها الإنسان للوصول الى الكمال ، وإنما هو المفتاح الأول للوصول ، الى كل خير وإلى كل كمال وإلى كل سلام .

وقد ذكر الدكتور احمد شلبي في موسوعته (النظم والحضارة الاسلامية) تعريفاً للثقافة قال فيه : (إنها الرقي في الأفكار النظرية ، وذلك يشمل الرقي في القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة ، والرقي كذلك في الأخلاق او السلوك ، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية) .

فهو يفرق في تعريفه بين العلوم الإنسانية التي تحدد الطابع المميز لكل أمة ، وبين العلوم التجريبية التطبيقية فلا يعتبرها داخلة ضمن نطاق الثقافة .

وذلك لأن الثقافة تتناول العقيدة والنشاط الإنساني في شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون والعادات ، والأدب الشعبي وأدب الخاصة ، والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية كنظم الحكم والادارة ، ونظم الأسرة ، ولا يخرج عن هذه الدائرة تخطيط المدن وتطوير القرى ووسائل النقل وأساليب المأكل والمشرب والزينة والزي ووسائل الترفيه النفسي والاجتماعي .

الفرق بين الثقافة والعلم :

وهناك فرق بين الثقافة والعلم ، وهذا الفرق يتمثل في أن العلم عالمي بطبيعته يلتقي مع كل أمة وكل مجتمع ، ولكن الثقافة خاصة بكل أمة بعينها ، والعلم يرمي إلى تنمية الملكات ، وهو في نهاية المطاف وسيلة وإرادة، وقد يستعمل للخير والشر على السواء،وتتشكل وجهته في بوتقة الثقافة نفسها ، كذلك فإن هناك فرقاً بين الثقافة والمعرفة ، فالمعرفة هي المعلومات العامة المنوعة المختلفة المتعارف عليها في كل الثقافات والأوليات العامة البديهية ، أما الثقافة فليست معارف فقط ، ولكنها موقف واتجاه وعاطفة وأسلوب حياة ، أما المعارف

---

(١) ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرةللدكتورعبد الحليم عويس ص ١٦ .

فهي المادة الخام للثقافة ، ومكانة الثقافة من التعليم والتربية ، مكـانة الدرجة الأعلى . فالتعليم قاصر على الإعداد المدرسي والدراسي لتكوين العقلية المؤهلة للثقافة ، أما الثقافة فهي الدرجة الأعلى التي تكون الفرد تكويناً ممتازاً[1] .

العلاقة بين الثقافة والحضارة :

والثقافة مرتبطة بالحضارة ارتباطاً وثيقاً ، ذلك لأن ثقافة كل أمة هي أساس حضارتها ، فهي فكرها وحركتها وأسلوب حياتها . ولهذا فإن من حق كل أمة أن تقتبس الجانب المادي في الحضارة لأمة اخرى بوصفها أدوات ووسائل ومواد أولية ، ولا تقتبس ثقافتها لأنها ذاتية وخاصة بهذه الأمة وحدها .

ومن الباحثين من فَرَّقَ بين الجانب الفكري المعنوي في الحضارة وخصوه باسم الثقافة ، وبين المجالات المادية النفعية التي تخدم الأغراض العملية المباشرة فآثروا ان يسموها (مدنية) ، ومنها مثلاً مجالات التقدم الإنساني في الزراعة والصناعة والطرق والعمارة .

وليست ثمة فائدة من هذا التفريق بين الثقافة والمدنية ، لأن تصور ثقافة من غير مدنية ، أو مدنية من غير ثقافة تصور نظري بعيد عن الواقع التاريخي ، وأن الجانب الروحي المعنوي والجانب المادي العملي يؤثران ـ متضافرين ـ في الرقي الإنساني . اللهم إلا أن يقال : إن الجانب الديني والعلوم الإنسانية من نظم اقتصادية واجتماعية تساعد على تشكيل معالم الشخصية الذاتية لكل أمة من الأمم وليس الأمر كذلك بالنسبة للعلوم التطبيقية وللوسائل النفعية المادية .

وهناك تعريفات نوعية للثقافة يركز فيها المتخصصون على جوانب تنتمي الى تخصصهم الدقيق ، فمثلا يرى علماء الإنسان أن الثقافة باعتبارها الركن الركين في فهم الإنسان والجماعات ، تمثل : (أسلوب الحياة في مجتمع ما ، بما يشمله هذا الأسلوب من تفصيلات لا تحصى من السلوك الإنساني)[2] .

ويرى علماء الاجتماع أنه يقصد بالثقافة (النتاج الإنساني للتفاعل

---

(١) الثقافة للأستاذ أنور الجندي . ص ٤ .

(٢) مجلة الفيصل عدد (٢٠) ، وانظر ثقافة المسلم ص ١٧ د . عبد الحليم عويس

الاجتماعي وأنها تعني كل الاشكال المادية والروحية في المجتمع ، وأنها تشكل عناصر عقلية مشتركة بين أفراد المجتمع ، ومن ثم فانها تفرض على اعضاء المجتمع التزامات معينة وسلوكيات محددة)[١] .

هذه التعريفات تنبع من التركيز الجزئي على بعض الجوانب ، بحيث تطغى على بقية الجوانب ، لكنها عند اجتماعها يكمل بعضها بعضاً . وليس ثمة تعارض بين هذه التعريفات النوعية للثقافة وبين التعريف السابق لها ، بل إنه لا وجود للتعارض بين الثقافة والحضارة والمدنية لأنها جميعاً تعتبر مظهراً من مظاهر الرقي الإنساني ودليلاً على مستواه العقلي .

الثقافة الإسلامية :

من الركائز الطبيعية للثقافة الإسلامية ومن مقوماتها المميزة ومن أهدافها المحددة يمكن أن نستنبط تعريفا لها فنقول : (إنها الصورة الحية للأمة الإسلامية . فهي التي تحدد ملامح شخصيتها ، وقوام وجودها ، وهي التي تضبط سيرها في الحياة ، وتحدد اتجاهها فيه . إنها عقيدتها التي تؤمن بها ، ومبادئها التي تحرص عليها ، ونظمها التي تعمل على التزامها وتراثها الذي تخشى عليه من الضياع والاندثار ، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار)[٢] .

وعلى هذا فالثقافة الإسلامية هي الشخصية الإسلامية التي تقوم على عقيدة التوحيد وعلى تطبيق الشريعة الإسلامية والأخلاق الايمانية المستقاة من مصادر الاسلام الأساسية وهي الكتاب والسنة .

الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات :

تختلف الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات الأخرى غربية كانت أو شرقية من حيث الأسس والمقومات والأهداف ، فالثقافة الإسلامية تستمد كيانها من الإسلام متمثلاً في كتاب الله وسنة رسوله بينما تقوم الثقافة الغربية على استمداد مصادرها من الفكر اليوناني والقانون الروماني وتفسيرات المسيحية التي وصلتها .

---

(١) انظر : ركائز علم الاجتماع د . زيدان عبد الباقي ص ١٦١ .
(٢) لمحات في الثقافة الإسلامية للأستاذ عمر عودة الخطيب ص ١٣ .

والثقافة الإسلامية تهدف إلى نشر العدل والأخوة الإنسانية بين كافة الأجناس والفئات البشرية ، بينما الثقافة الغربية تهدف الى استغلال الغني للفقير والعظيم للحقير واستعباد الناس بعضهم بعضاً واستعمار القوي للضعيف والتسلط على خيرات البلاد واستخدامها وفق ما يحقق لهم النفع والمصلحة الخاصة .

ومن هنا يبدو الفرق واضحاً بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات الأخرى ، كما يتجلى بوضوح خطأ القول بوحدة الثقافة العالمية ، (ولو قيل وحدة المعرفة العالمية لكان ذلك مقبولاً ، لأن المعرفة تضم المعارف والعلوم العامة التي هي ملك للبشرية كلها . ذلك لأن الثقافات ذاتية وخاصة ومتصلة بأممها لا تنفك عنها ، وهي من أجل ذلك لا تنصهر ولا تذوب في بوتقة واحدة ، ولكنها تتلاقى وتتعارف ويأخذ بعضها من البعض الآخر ما يزيده قوة ، ويرفض بعضها من البعض الآخر ما يضاد وجوده أو يتعارض مع الأصول الأساسية لمقومات فكره وكيانه وذاتيته)[١] .

---

(١) الثقافة للأستاذ أنور الجندي . ص ٦ .

خصائص الثقافة الإسلامية

للثقافة الإسلامية خصائص مميزة تنفرد بها عن سائر الثقافات ، وتجعلها ذات شخصية مستقلة وصبغة متفردة وطبيعة خاصة .

أولى هذه الخصائص أنها ربانية المصدر :

فالثقافة الإسلامية تعتمد على كتاب الله الموحى إلى رسوله ﷺ ، وهي محصورة في هذا المصدر ، بعيدة كل البعد عن الفكر الفلسفي الإنساني .

وإن هذا المصدر الرباني يتسم بسمة الخلود والصدق والصحة ، ذلك لأن الكتب السماوية الأخرى قد دخلها التحريف ، وأدخل عليها شروح وتفسيرات وتصورات وزيادات ومعلومات بشرية ، ادمجت في صلبها ، فبدلت طبيعتها الربانية ، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] .

وهذا هو السر الذي يعطي الثقافة الإسلامية قيمة التفرد والخلود .

ومهمة الرسول ﷺ كانت تبليغ هذا الأصل إلى الناس جميعا ، إذ أنه يتلقى من الله رب العباد ، وينقل ، ويبلغ وينفذ ، ويطبق . قال الله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ . وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[2] . وقال

---

(١) الحجر/ ٩ .

(٢) الشورى ٥٢ ـ ٥٣ .

سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إذا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ومَا غَوَىٰ ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِيْنَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِيْنَ ﴾[2] . ويقول عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[3] .

هذه الآيات القرآنية العظيمة كلها تدل على أن مصدر الثقافة الإسلامية هو كتاب الله تبارك وتعالى ، وهذا الكتاب محل ثقة الناس لأنه مبرأ عن كل نقص أو هوى قد يصاحب العمل الإنساني أو يؤثر في الفكر البشري . وإن هذا المصدر موافق للفطرة الإنسانية ، ملب لحاجاتها مُحقق لمتطلباتها ، ملائم لكل جوانبها .

ومن البدهي أن الثقافة التي تنبع من كتاب الله والتي تحقق حاجات الإنسان ، والتي يطمئن إليها الإنسان ويثق في صحتها تنشىء أرقى ثقافة عرفتها البشرية ، وتقدم أشمل منهج للحياة .

وهي في هذه الخاصة تختلف اختلافاً شاسعاً عن الثقافة الغربية التي تستمد مصادرها من الفكر الفلسفي اليوناني والقانون الروماني ومن النصرانية المحرفة ، أو من الفلسفة الوضعية .

والفلسفة الغربية في العصر الحديث تقوم على اعتبار الطبيعة والواقع والحس مصادر مستقلة وفريدة للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة . بل إنها تعتبر أن الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان وهي التي توحي بها ، وترسم معالمها الواضحة ، وهي التي تكون عقل الإنسان ، والإنسان لا يتلقى من خارج الطبيعة أو مما وراءها ، ولا يتلقى من ذاته ، إنما يتلقى المعرفة من الطبيعة بما فيها الواقع المحسوس[4] .

---

(١) النجم ١ - ٤ .

(٢) الآيات (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) من سورة الحاقة .

(٣) الآية (٦٧) من سورة المائدة .

(٤) خصائص التصور الإسلامي للأستاذ سيد قطب . ص ٨١ .

والثقافة الماركسية تعتبر الحالة الاقتصادية أصلاً لكل الأعمال الإنسانية ، في تاريخ الجماعة البشرية ، وإن تغير الأحوال الاقتصادية يؤثر على حياة الدولة وعلى سياستها ، ويؤثر كذلك على العلم والدين ، وعلى هذا فإن الثقافة لديها فرع من الحياة الاقتصادية .

وهكذا فإننا نجد اضطراباً وخلطاً فيما تعتبره الثقافة الغربية مصدراً لها ، مما يؤدي إلى اضطراب في فكر الإنسان وفي نفسيته ، وهذا ما يورث كآبةً نفسية في إحساس الفرد ، أو انطلاقاً شديداً لا يحدّه ضابط ولا توقفه قيمة .

يقول الأستاذ سيد قطب :

(ما الذي قدمته المادية ؟ إننا لا نجد بين أيدينا ولا في عقولنا ولا في واقعنا منه شيئا (مضبوطا) فلماذا يا ترى نختاره ونلوذ به وهو هباء لا يثبت على اللمس ، ولا يثبت على الرؤية ، ولا يثبت على النظر العقلي ؟

أما هذا المسخ الذي يثير الاشمئزاز في تصور كارل ماركس وإنجلز للحياة البشرية ودوافعها ومجالها الذي تتحرك فيه ، وحصرها في جحر (الاقتصاد) فان الشعور بالاشمئزاز منه يزداد ، عندما يقف الإنسان أمام عظمة الكون المادي نفسه . وما فيه من موافقات عظيمة عجيبة ، يبدو فيها كلها كأنما هي تمهيد للحياة البشرية بوجه خاص : فلا يتمالك نفسه من الاحتقار والاشمئزاز لمثل هذا التفكير الصغير الذي لا تروعه عظمة هذا الكون ذاته ، ولا تروعه الموافقات الكامنة فيه لاستقبال الحياة البشرية ، فإذا به يدير ظهره لكل هذه العظمة ، ولكل هذه الروعة ، ليخنس في جحر الاقتصاد والآلة والإنتاج ، لا بوصفها غاية للإنسان ومحركاً فحسب ، ولكن بوصفها كذلك العلة الأولى والإله الخالق والرب المتصرف المصرف لهذه الحياة)[1] .

ونذكر هنا نعم الله علينا ، إذْ وهبنا الدين الإسلامي الذي هو مصدر لكل خير ، ولكل قيمة جديرة أن تبرز وأن تسود .

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٨١ وما بعدها .

الخاصة الثانية : الثبات

ومعنى الثبات هنا ، ثبات المصدر الأول للثقافة الإسلامية ، وأن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية ثابت الحقيقة وثابت المفهوم وغير قابل للتغيير .

ذلك لأن القاعدة الأولى التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية هي الإيمان بوحدانية الله وبوجوده وبقدرته وهيمنته . . وكل صفاته الفاعلة في الكون والحياة والناس .

فهذه العقيدة أو هذه القاعدة ثابتة لا تتغير ولا تقبل التغيير ، وما يتفرع عن هذه القاعدةمن أن العبودية لله وحده واجبةعلى الناس جميعاً بمافيهم الرسل ، وأنه ليس لهم أية خاصة من خصائص الألوهية ، حقيقة ثابتة أيضاً لا تتغير ولا تتبدل ولا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . وأن الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله . . . حقيقة ثابته .

وأن الدين عند الله الإسلام ، وأن الله لا يقبل من الناس ديناً سواه ، حقيقة ثابتة .

أن الإسلام يعني إفراد الله بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات والاستسلام لمشيئته والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته . . حقيقة ثابتة . .

وأن الإنسان مخلوق مكرم على سائر المخلوقات ، وأنه مستخلف في الأرض ، وان الناس من أصل واحد ، . . حقيقة ثابتة .

وأن غاية الوجود الإنساني إفراد الله بالعبادة حقيقة ثابتة . .

و أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، وأن الآخرة دار حساب وجزاء حقيقة ثابتة . .

هذه وغيرها من القواعد التي تتصل اتصالاً مباشراً بالعقيدة الإسلامية حقائق ثابتة لا تتغير ولا تخضع للتغيير .

والثمرة المترتبة على ثبات هذه الحقائق في الثقافة الإسلامية ضبط حركة الإنسان ، وتقييد تصرفاته ضمن إطار محدد ، فلا يخرج عن جادة الهدى ، ولا

يحيد عن معالم الأخلاق ، ولا يتخلى عن الموازين والقيم الإلهية . وإلا غدا إنساناً شارداً حائراً تائهاً ضالاً لا يتبين ملامح الهداية ولا تتضح أمامه الرؤيا ، فتتشابه عليه الأمور ، وقد يرى الباطل حقاً والحق باطلاً ، وقد يخبط في تيه الحياة خبط عشواء ، وقد يظلم وقد يغش ، وقد يتعسف . . لأن الموازين اختلت لديه والمقاييس تغيرت في نظره . .

وثمرة أخرى تجنيها من ثبات الحقائق في الثقافة الإسلامية هي ضبط الفكر الإنساني ، فلا يتأرجح مع الشهوات والأهواء والمؤثرات ، ولا يندفع وراء حب أو كره عارض . ولا يتأثر من قول شخص قريب أو بعيد ، أو حبيب أو بغيض[1] . أو كبير أو صغير أو رئيس أو مرؤوس ، أو صاحب سلطان أو مغمور . . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ . وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا إعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله ، إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[3] .

وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾[4] .

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾[5] .

والثقافة الإسلامية بهذه الميزة تختلف اختلافاً كبيراً عن ثقافة الغرب (أياً كان نوعها) والتي تقوم على مبدأ التطور المطلق الذي يؤدي إلى فكرة وجود النقيض . .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي للأستاذ سيد قطب . ص ٨٣ - ٨٨ .

(٢) سورة المائدة/ ٨ .

(٣) سورة النساء الآية/ ١٣٥ .

(٤) سورة النساء/ ١٠٥ .

(٥) سورة المؤمنون/ ٧١ .

وكان من نتيجة الثقافة الغربية أن جعلت البشرية تسير على غير هدى ، تتخبط في تصوراتها وفي أنظمتها ، وأوضاعها وتقاليدها . .

وكان من نتائجها أيضاً أنها قضت على المثل العليا ، والقيم السامية في النفس الإنسانية . وبددت الإحساس بالخلق الكريم والمعنى النبيل من أجل تحقيق أكبر قدر من الربح للمرابين وتجار الأهواء[1] .

وكان من أبرز نتائج (مبدأ التطور) الذي ترتكز عليه الثقافة الغربية أن تفلت الإنسان من كل قيمة ثابتة ومن كل مثل مرتبط بهدف ثابت ، ونادى بالانطلاق والتجديد في كل شيء ، من غير ضوابط أو حدود[2] .

وإن مبدأ التطور الذي لا يتقيد بأي أصل ثابت ولا بأية قيمة ثابتة ليس (حقيقة علمية) وإنما هو فكرة طائشة ، وهوى جامح مبعثه الأهواء النفسية والرغبات العاتية . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بَلْ يُرِيْدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾[3] .

ويقول سيد قطب : (إن دارون ـ وهو يقرر مذهب التطور في خطٍّ سير الحياة ـ لم يكن يبحث ، إلا جزئية سطحية من جزئيات هذا الكون تبدأ بعد وجود الحياة . ولا تمتد الى مصدر الحياة ، ولا إلى الإرادة التي صدرت عنها الحياة ، وحتى على فرض صحة نظريته ، فإن خط التطور يثبت أن هناك إرادة ثابتة من ورائه . وأنه يتم وفق خط مرسوم لا مجال للمصادفة فيه . وأنه جزء من (الحركة) التي هي قانون من قوانين الكون . وحركة الكون ليست فوضى . وإنما تتم حول قاعدة (ثابتة) وتتم في إطار (ثابت) .

وعلى أي حال فلم يكن لا (المنهج العلمي) ولا (الحقائق العلمية) هي التي أملت على دارون ـ حين لم يهتد إلى سر الحياة ، ولم يستطع تعليلها علميا ـ أن يهرب من ردها إلى الله . ووجودها ذاته يحتم الاعتراف بموجد لها ، وانتظام خط سيرها وتناسقها مع الكون يحتم الاعتراف بأن موجدها لا بد أن يكون مريداً مختاراً فيما يريد ، عليماً خبيراً . . ولكن دارون كان هارباً من (الله) لأنه كان

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته . ص ٨٣ ـ ٨٨ .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة . ص ١٠٤ .

(٣) سورة القيامة الآية/ ٥

هارباً من الكنيسة وإلهها الذي تصول باسمه وتجول . . ومن ثم رد الحياة إلى (الطبيعة) التي لا حد لقدرتها كما يقول . . ومن ثم حاول أن يوهم أن الإثبات لشيء ـ على الإطلاق ـ بينما بحثه كله كان في دائرة خط سير الحياة بعد وجود الحياة . . ولم يكن يتناول كل شيء على الإطلاق .

والمذهب الماركسي هو أشد المذاهب (الوضعية) معارضة لحقيقة (الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت) لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة في طبيعة الكون (المادي) ذاته ، يفقد المذهب ركيزته الأولى التي يقوم عليها ، ويحطم دعواه في (التقدمية) كما يفهمها .[١] .

أما مبدأ (النقض) الذي يوصل إليه (مبدأ التطور) فيعني أن كل شيء يهدم نفسه ، وأن كل شيء يتحول إلى مقابل ونقيض ومخالف .

وهذا المبدأ (الوهمي) الهدام يخالف كل فكرة تقوم على الإيمان والتصديق والثبات ، ولكنه بالوقت نفسه ينقض فكرته من حيث الأساس . . فيتضح من هذا أن مبدأ النقض هو مجرد (تحكم) فكري لا رصيد له من الواقع .

وبعد هذه الموازنة بين الثقافة الإسلامية المبنية على الثبات ، والثقافة الغربية المبنية على مبدأ التطور ، نقول : إن الثبات في المبدأ ، والثبات في القيم والمثل ، لا يجرد الإنسان من كل حول وقوة ، ولا يتركه متقوقعا في جحر داره منطوياً على نفسه ، ولا يحجر على تفكيره ولا يغل يديه ويمنعه من الإنتاج والعمل . . بل يطلق يديه للعمل ، وعقله للتفكير ومواهبه للإبداع وطاقاته للإنتاج ، ونشاطه للإثمار ، ويجعله إنساناً متفاعلاً مع الحوادث متفاعلاً مع البيئة التي يعيش فيها . متفاعلاً مع العلوم والمعارف يؤثر ويتأثر ، يبني ويشيد ، ويرتقي في سلم الأفضل نحو الخير والتقدم والعزة والسمو والمجد ، ينقد ويفكر ، يعطي ويغدق ، ولكن كل هذه الأنشطة ، وكل هذه القوى والتفاعلات ، لا تخرج عن محور الثبات في القيم والثبات في الحقيقة ، فلا تكون الأمانة التي هي خلق فاضل كريم ، ساقطة من حسابه في يوم ما ، ولا تكون الرذيلة عنده فضيلة ليصل في ساعة من ساعات حياته إلى ربح أكبر أو مغنم أوسع . . ولا يكون التدني الخلقي

---

(١) خصائص التصور الإسلامي . ص ٨٨ .

والسلوكي علامة خير في لحظة ما . . . بدعوى التطور والانطلاق . ولا يترك تراثه وماضيه بحجة التطور أيضاً ، لأن التراث جزء من شخصية المجتمع والأمة .

ومن ثمرات مبدأ (الثبات) في الثقافة الإسلامية أنه يعطي الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي الحصانة القوية المنيعة ضد دعوات الضلال الهدامة ، وبخاصة ضد الشيوعية الملجدة أو الماركسية التي أفلتت من العقيدة وأفلتت من القيم السامية .

ومن مزايا مبدأ (الثبات) في الثقافة الإسلامية أيضاً أنه يبث الطمأنينة في حياة الفرد وفي حياة المجتمع ، فالفرد يعمل وينتج ضمن إطار محدد ، وأفراد المجتمع كلهم يسيرون في دائرة واحدة وباتجاه موحد ، فلا تتصادم المصالح ، ولا تتباعد النزعات ، ولا تختلف الأغراض ، كل فرد في المجتمع الإسلامي يشعر بسلام نفسي داخلي وبسعادة قلبية ، ويشعر بسلام حينما يتعامل مع غيره طالما أن الهدف موحد والغاية واحدة . . وفي هذا المجتمع الإسلامي تتجلى المنافسة الكريمة في أبهى صورها ، إنها منافسة بالحق وللوصول إلى الحق . . وللتقدم في ترقية وسائل الحياة ، ووسائل المعاش ، فهناك حركة دائبة ، ممتدة من الأمس إلى اليوم إلى الغد ، مطردة النمو والتقدم .

ومما يثمره مبدأ (الثبات) في الثقافة الإسلامية ـ الثبات في الموازين والمعايير التي توزن بها أعمال الناس جميعا ، فلا محاباة ولا تفاضل ولا مداهنة ولا ملاينة ، فالعظيم والحقير سواء أمام المبادىء الإسلامية وأمام الأنظمة الإسلامية . وأعظم بقول الرسول ﷺ لأسامة بن زيد وقد جاء يشفع للمرأة المخزومية التي سرقت (وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ، وهل هناك فوق هذه الموازين الثابتة موازين ؟ وهل هناك فوق هذه القيم الثابتة من قيم ؟ فالثبات يضمن لأفراد المجتمع كلهم على حد سواء مبادىء ثابتة يتحاكمون إليها . فلا تطلق الأيدي لتعبث في أموال الآخرين أو أعراضهم ثم لا يجدون مبدأ ثابتاً يفصل بينهم ويحكم حياتهم . . وإلا لغدت الحياة فوضى ، خالية من معنى الحياة والفضيلة والسلام النفسي والجماعي .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيْعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ

الَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[2] وقال : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾[3] .

واذا استقر هذا الإطار في ذهن الفرد وفي ذهن الجماعة استطاعت الحياة ـ فكراً وأسلوباً ووسائل ـ أن تتحرك في داخله بحرية ومرونة واستجابة لكل تطور فطري صحيح مستمد من التصور الكلي الثابت القويم .

ولعل هذه الميزة التي تتصف بها الثقافة الإسلامية هي التي ضمنت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته مدى سنوات عديدة رغم الضربات العنيفة التي وجهت إليه ، ورغم الحروب الصليبية التي استمرت اكثر من ألف عام ، ورغم الحملات الشنيعة من المغول والتتار . . التي استهدفت القضاء على قوى المجتمع الاسلامي وإبادة المسلمين ، ورغم الدعايات الباطلة والشبهات السيئة التي تتأثر من حين لآخر لتشويه تعاليم الإسلام ومبادىء الاسلام وانظمة الاسلام . .

يقول الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) : (يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية وجميع المدنيات ، أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية . . إنها تمر في جميع أدوار الحياة العضوية ، التي يجب أن تمر بها ، إنها تولد ، ثم تشب وتنضج ، ثم يدركها البلى في آخر الأمر ، فالثقافات كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل ترابا تموت في أواخر أيامها ، وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثا) .

(أهذه إذن حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية . . ومما لا شك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهداً من الازدهار . وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية ، ولقد غيرت معالم الشعوب ، وأوجدت دولاً جديدة ، ثم سكنت وركدت

---

(١) الجاثية/ ١٨ .
(٢) الانعام/ ٢٥٣ .
(٣) المائدة/ ٥٠ .

وأصبحت كلمة جوفاء . . وها نحن أولاء اليوم نشهد انحطاطها التام ولكن هل هذا كل ما في الأمر ؟

(إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخر ، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم ، بل هو شرع سنة الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان فإن الموقف يتبدل تماماً .

واذا كانت الثقافة الإسلامية نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً . . فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول : إنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . . ثم إن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتاً وخلواً يحلان في قلوبنا ، التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأدبي ، ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـ مع نموها الحاضر ـ قد استطاعت أن تبتعد عن الإسلام . . إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي ، إنها لم تستطع ان تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الاجتماعي الإسلامي . . إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ، ولا في رجائه الروحي وسعادته)[1] .

(ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري في كل ما وصل اليه ، مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهج الإسلامي . . فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه ؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة ، والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم ؟ ولكن اذا رأينا نظاما بني علي الدين قد استطاع أن يقدم منهاجاً عملياً للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان ، من كل شيء آخر يمكن العقل البشري أن يأتي به عن طريق الإصلاح والاقتراح أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميدان الاستشراف الديني) ؟

(لقد تأيد الاسلام ـ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ـ بما وصل اليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني ، لأن الإسلام كشف عنها وأشار إليها ، على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل) .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ١٠٣ .

(ولقد تأيد أيضا بما وقع في أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات ، لأنه كان قد رفع الصوت عالياً واضحاً بالتحذير منها ، من قبل أن تحقق البشرية أن هذه أخطاء . . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد ـ من وجهة نظر عقلية محض ـ كل تشويق إلى أن نتبع الهدي الاسلامي بصورة عملية وبثقة تامة) .

نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام ـ كما يظن بعض المسلمين ـ لأن الاسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذي نحتاج اليه فعلاً ، فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا ، وغرورنا ، قصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا .

(إن الإسلام غني عن كل تحسين ، وإن كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعي بافتئات من ثقافة اجنبية ـ ولو بإشراق ضئيل ـ سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن)[1] .

وعلى هذا فكل دعوى لتغيير القيم الثابتة ، أو الأسس الإسلامية الثابتة ، باسم التجديد أو الاصلاح أو التطور . . دعوى معادية للجنس الإنساني تقف حائلاً دون الازدهار الحضاري ، والوعي الديني ، والتقدم الراقي في أسلوب الحياة والمعاش . . ذلك لأن الثقافة الإسلامية تدعو إلى الحركة وإلى البناء وتنهى عن الجمود وعن الكسل والتواكل والتخلف والتقصير ، ولو نظرنا الى الكون لوجدناه في حركة دائمة وفي تغير دائم . ولكنه يتحرك مع المحافظة على حقيقته الأصلية . . . وعلينا نحن المسلمين أن نعمل وأن نجد وأن نجتهد وأن نرتقي في أسباب الكمال والتقدم . مع المحافظة على شخصيتنا الإسلامية وعلى أصالتنا التاريخية وعلى قيمنا النبيلة وعلى عقيدتنا الإلهية . وأية دعوة للانسلاخ عن مبادئنا دعوى هدامة عدائية . . فلنقدر مسؤوليتنا تجاه أنفسنا وتجاه البشرية كلها .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ترجمة عمر فروخ ص ١٠٩ ـ ١١٢ ، وانظر خصائص التصور الاسلامي ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .

الخاصة الثالثة : الشمول

تمتاز الثقافة الإسلامية بميزة (الشمول) ذلك لأنها قدمت للبشرية تصوراً اعتقادياً كاملاً ، ومنهجاً للحياة الواقعية شاملاً لكافة جوانبها . . وهو منهج صالح للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان .

أما الشمول العقيدي فيتمثل ببيان حقيقة التوحيد الذي يعطينا تفسيراً مفهوماً وواضحاً لوجود هذا الكون ابتداءً ، ولكل حركة فيه ، كما يعطينا تفسيراً واضحاً ووافياً لكل ظاهرة من ظواهر الحياة ونشوئها وتكوينها ، وتكوين الإنسان من عقل وجسم وروح . .

هذا التصور مستمد من كتاب الله تبارك وتعالى ، وهو يعرف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً وشاملاً . . يعرفهم بذاته سبحانه ، وبصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، كما يعرفهم بأثر الألوهية في الكون وفي الإنسان وفي سائر الكائنات الحية .

وهذا التعريف بالوجود الإلهي والوحدانية والتفرد بالخلق وكل الصفات الإلهية يدخل إلى النفس الانسانية ، ويؤثر فيها بحيث يشعر الإنسان بعظمة الله دائماً ، ويحس برقابته في كل عمل وفي كل قول . .

﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ . لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْضِ . مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإِذْنِهِ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ، ولاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ . ولاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

هذا التصور الشامل (للوجود) يرد الإنسان إلى خالقه ، فيتلقى منه العقيدة والقيم والمبادىء والأنظمة وسائر ما يواجه به الحياة . .

والإنسان في ظل هذا التصور يستطيع أن يعيش لآخرته وهو في دنياه ، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه ، وأن يزاول أوجه نشاطه الإنساني ، وهو مرتبط بالله تبارك وتعالى ، ينال الأجر والمثوبة ، ومن ثمرات هذه الميزة أنها تمنح القلب

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

والعقل الراحة والطمأنينة وتصله اتصالاً مباشراً بالله تبارك وتعالى خالق الإنسان والكون وواهب الحياة . . فلا يبقى الإنسان حائراً وحيداً ، ضعيفاً بدرب الحياة بل يجد الملجأ والملاذ . . يجد المعين والقوي والمعطي والمعز ، والموجد والعظيم يجد الله دائماً معه يعينه إلى الوصول الى الحق الساطع الذي لا ريب فيه ، ويلهمه السداد خائفاً حذراً غير آمن من مكره .

﴿ وَإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنِّي فَإنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَان فَلْيَسْتَجِيْبُوا لِيْ وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1] .

ومن ثمرات (الشمول) أنه يشعر العبد برقابة الله تبارك وتعالى له في كل تصرفاته فيولد في نفسه عنصر الأخلاق الذاتي . . فهو يخلص لله في عمله ، ويخلص لله في عبادته ولا يتجاوز دائرة الحل ولا يتعداها إلى المحرمات وإلا فإنه يستحق العقاب الذي يخشاه ويفر منه .

ومن الثمرات أيضاً أنه يعصم الإنسان من الالتجاء إلى غير الله تبارك وتعالى . . كما يعصمه من أن يستمد التشريعات والأنظمة من غير كتابه الذي هو كتاب هداية وشريعة ومنهاج كامل للحياة .

(الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[2] .

خاصية التوازن :

تتسم الثقافة الإسلامية بسمة (التوازن) ذلك لأنها تقوم على أسس عقدية متوازنة ، وعلى مناهج متوازنة لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولا مغالاة ولا تقصير .

ففي مجال العقيدة يقوم التصور الإسلامي على أساسين متوازيين أولهما الإيمان بالغيب . والثاني الإيمان بعالم الشهادة . أما الايمان بالغيب فيتمثل بالايمان بوجود الله وبألوهيته وربوبيته ، والايمان باليوم الآخر وما يتضمن من أهوال وحساب ، وموقف وصراط ، وجنة ونار .

---

(١) سورة البقرة/ ١٨٦ .

(٢) آل عمران/ ٣ ، ٤ .

وأما الإيمان بعالم الشهادة فيتمثل بالإيمان بحقيقة الإنسان والكون وسائر المخلوقات الحية . وهذا الإيمان بشقيه يتلاءم مع فطرة الإنسان ، التي تريد أن تركن إلى قوة عظيمة مغيبة غير مرئية تستمد منها العون وتجد في صلتها بها الأمن والطمأنينة ، قوة أعظم من أن يحيط بها الادراك الحسي ، ولكن آثارها من قدرة وإبداع وخلق تدل على وجودها وهيمنتها وصفاتها العظمى .

ويقول الأستاذ سيد قطب : (إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود ، ليست عقيدة ، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة كما أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة ، فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي ، والفكر الإنساني لا بد ان يتلقى شيئاً مفهوماً له ، له فيه عمل ، يملك أن يتدبره ويطبقه ، والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك وتتوازن بها الفطرة ، وهي : تجد في العقيد كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق[1] .

والثقافة الإسلامية بهذه الصفة توازن بين عبودية الإنسان لله الواحد تبارك وتعالى ، وبين مقام الإنسان الكريم في الكون .

فهناك فصل تام بين حقيقة الألوهية والربوبية وما تقتضيه من صفات وأسماء وبين حقيقة العبودية . قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] وقال : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3] .

والانسان حينما يحقق مرتبة العبودية لله وحده يكون قد وصل إلى مقام كريم نبيل ، لأن الله تبارك خاطب نبيه بالعبودية ووصفه بانه عبد الله في مقامين من أجل المقامات : أولهما حينما أسرى به الى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣٤ .

(٢) الآية (١١) من سورة الشورى .

(٣) الآية (٣) من سورة الحديد .

الأَقْصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

والمقام الثاني : مقام الوحي إليه والتلقي من الله رب العالمين ، وهذا من أوقع المقامات وأعزها إلى قلب الرسولﷺ ، وأعظمها قدراً عند المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[2] .

والعبودية هي أرقى حالة يصل إليها الإنسان قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3] ولهذه الميزة ثمرة هامة ، ذلك لأن الإنسان الذي يحقق العبودية لله وحده يترفع ويتحصن من أن يخضع لعبد مثله أو لمخلوق له خاصية العبودية ، ولهذا فإن المؤمن لا تَنحني جبهته إلا لله رب العباد ، كما لا يستعلي على غيره ولا يستكبر ولا يبغي الفساد في الأرض ، وبهذا تتجلى المساواة في مقام العبودية بأعظم وأدق وأروع معنى ، إذ الناس كلهم متساوون في هذه الخاصة ، وهم كلهم أخوة على صعيد واحد أمام الخالق العظيم . . وهم جميعاً يتلقون العقيدة من الله ، ويتلقون منهج حياتهم فوق الأرض من الله سبحانه . . وليس لفرد أن يشرع أو أن يجعل نفسه مصدراً لسلطة تعلو هامات العباد .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَة . وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ . وإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ . انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يؤفكون ﴾[4] .

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ

---

(١) الإسراء/ ١ .

(٢) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة النجم .

(٣) الآية (٥٦) من سورة الذاريات

(٤) المائدة ٧٣-٧٥ .

مِنْ دُونِ الله ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ ، مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحق إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ . وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١] .

وهنا تظهر عظمة الثقافة الإسلامية وسموها على غيرها من الثقافات ، فقد كانت الأساطير اليونانية والعبرية تدمج في بعض الأحيان بين الحقيقة الإلهية وحقيقة العبودية ، وقد دخل هذا التصور القبيح في أذهان الأوروبيين فظل يسيطر عليهم بعد أن دخلوا في الديانة المسيحية حتى إنهم حرفوا الديانة المسيحية على ضلالات الأساطير .

(فالأسطورة الإغريقية كانت تتصور كبير الآلهة (زيوس) غاضبا على الإله (برو مثيوس) لأنه سرق سر النار المقدسة (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة لئلا يرتفع مقامه فيهبط كبير الآله ويهبط معه مقام (الآلهة) ! ومن ثم أسلمه إلى أفظع انتقام وحشي رهيب .

والأسطورة العبرانية التي تصور الإله خائفاً من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة ـ بعد ما أكل من شجرة المعرفة ـ فيصبح كواحد من الآلهة ! ومن ثم يطرد الإنسان من الجنة ويقيم دونه ودون شجر الحياة حراساً شداداً ولهيب سيف متقلب)[٢] .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾[٣] .

إنَّ (التوازن) ميزة تنفرد بها الثقافة الإسلامية بين سائر الثقافات الأخرى ، وهي وحدها التي تضع الانسان في المكان المناسب له ، مكان فيه راحة نفسية واستقرار وجداني وسعادة قلبية وهو أصلح مكان لهذا المخلوق .

فإن الثقافة الإسلامية بهذه الخاصية تحصن المسلم من أن يتلقى من تعاليم

---

(١) المائدة/ ١١٦ ـ ١١٨ .

(٢) خصائص التصور الاسلامي للاستاذ سيد قطب ص ١٥٧ .

(٣) الآية (٥) من سورة الكهف .

الغرب أو أن يأخذ من غير حضارته ، وإذا أخذ شيئاً منها فبمنتهى الحذر والتأني ، لأن الأفكار الأسطورية دخلت إلى أذهان الغربيين وأثرت بمناهجهم الفكرية ، عن عمد منهم أو عن غفلة .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن التصورات الأوربية التي مكنت فيها تلك التصورات الأسطورية المختلفة ، ودخلت في صميمها ، بل دخلت في مناهج تفكيرها . . إن هذه التصورات الأوربية وما قام عليها من مناهج التفكير ، وما نتج منها من مذاهب وأفكار ، كلها تصطدم ـ اصطداماً ظاهراً أو خفياً ـ مع التصور الإسلامي ومناهج الفكر الإسلامية ، وإن أي استعارة من تلك التصورات أو مناهج التفكير أو نتاجها من المذاهب والأفكار ، تحمل في صميمها عداء طبيعياً للتصور الإسلامي وللفكر الإسلامي ، ولا تصلح بتاتا للاقتباس منها أو الاستعانة بها ، بل هي كالسم الذي يتلف الأنسجة ويؤذي الأعضاء ، ويقتل في النهاية إذا كثر المقدار)[1] .

خاصية الإيجابية :

تمتاز الثقافة الإسلامية بأنها (إيجابية) ذلك لأن الانسان ، في مدلول الثقافة الإسلامية يعبد الله السميع البصير الخالق الرازق الفعال لما يريد . . . له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وكل أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى كاملة الايجابية والفاعلية .

قال جل من قائل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ وَمَاكَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوات وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَديراً ﴾[3] .

وقال : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

---

(١) خصائص التصور الاسلامي للاستاذ سيد قطب . ص ١٧٠ .
(٢) الآية (٥٤) من سورة الأعراف .
(٣) الآية (٤٤) من سورة فاطر .

تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ الَّلَيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ ، فِي الَّلَيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] .

والثقافة الإسلامية (إيجابية) لأنها تلزم الإنسان بالعمل حسب طاقاته وامكاناته ومواهبه ، وتحذر بشدة من التواكل والتخاذل والتباطؤ والتكاسل . . . ولهذا فهي لا ترضى للمسلم أن يكون كسولاً يعيش على هامش الحياة دون أن يؤثر في الكون تأثيراً فاعلاً إيجابياً ، بل يجب أن يؤثر في المحيط حوله ، وأن يؤثر في الناس ، وأن يؤثر في دنياه ودنيا غيره . . . وأن يكون إيجابياً في عقيدته متفاعلاً معها ، مدركاً لمعانيها يحيا بكل عنصر من عناصرها ، ينبض قلبه بحبها ، ويسارع ليتمثل كل ركن من أركانها ، فيُجسّده واقعاً يرقى به نحو الأكمل والأفضل دائماً ، ويعايشه إحساساً ومشاعر وحيوية وجمالاً وبهاء . . . كما يكون إيجابياً في دعوته إلى الله على بصيرة وهدى . إيجابياً في مسارعته لأداء العبادات والفرائض .

ولهذا فليس المسلم في عرف الثقافة الإسلامية ذلك الإنسان السلبي الذي يعيش بعيداً عن أحداث الحياة وقضاياها ، لا يهمه في دنيا المسلمين أمر ولا يهزه خطب ولا يثيره حدث ولا تحرك وجدانه قضية . ويقنع بركيعات يركعها نافلة في ليل أو نهار ، أو أذكار يؤديها منعزلاً عن حياة الجماعة الإسلامية . . . وإنما هو ذلك الإنسان المسلم الإيجابي في عقيدته ، الإيجابي في دعوته ، المهتم بأمر المسلمين وشؤونهم ، الذي يسعى جاهداً لتغيير كل واقع لا يخضع لحكم الله ولا يدين بدين الحق ، وهو الذي يتمكن من أن يغير نفوس الآخرين الذين رضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة ، فانحصرت اهتماماتهم في أهواء عابرة ، ونسوا أنفسهم وضيعوا فرائض الله وتهاونوا في أداء العبادات وتقاعسوا عن أداء الحقوق إلى أصحابها ، وأهل الحق عليهم .

إن المسلم لا يهدأ له بال ولا يرتاح له ضمير ، ولا تقر له عين ولا تطمئن له نفس حتى يرى راية الإسلام عالية خفاقة ، وحتى يحس إحساساً حقيقياً أن القرآن الكريم يحكم ضمير الفرد ، ويحكم تصرفات المسلمين ويحكم واقع المجتمع المسلم .

---

(١) آل عمران ٢٦ - ٢٧ .

هذا هو المسلم في عرف الثقافة الإسلامية ، وهذا ما تثيره الثقافة الإسلامية في نفسية المسلم من أحاسيس ومشاعر ، إنه ليس إنساناً سلبياً يحسن إن وجد الناس قد أحسنوا ، ويسيء إن وجد الناس قد أساءوا ، كلا إنما هو إنسان يعمل في محيط هدفه ومبدئه وقيمه ، وقد حدد الرسول ﷺ معالم شخصية الفرد المسلم بقوله : (لا تكونوا إمعة تقولوا إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أساءنا ، بل وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا) .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[1] .

وقال جل من قائل : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[3] .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير تبين سمة الإيجابية التي يجب أن يتصف بها المسلم ، لأنها ميزة هامة من مزايا ثقافته الإسلامية ، وما اتصفت به الثقافة يجب أن يبرز إلى الوجود ويتمثل في واقع الحياة سلوكاً بناءً وقولاً مؤثراً وعاطفة بليغة وخلقاً فعالاً ، وقوة حقيقية وطاقة معمرة تصون الحقوق ، وتعطي المحروم ، وتأخذ على يد الظالم ، وتمنع الطغيان .

والثقافة الإسلامية بخاصتها الإيجابية تشعر الفرد بأنه مكلف وأن عليه أن يبذل قصارى جهده ، وهو مع ذلك مزود بالاستعدادات والمواهب والإمكانيات ، وأن الله سبحانه وتعالى سيعينه على عمله واجتهاده ، يسدد خطاه ، ويؤيده بنصره ، وقد أبان له طريق الخير ووجهه نحوه ، وأوضح له طريق الشر وأمره

---

(١) الآية/ ١٥ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ٥٥/ من سورة النور .
(٣) الآية / ١١٠ من سورة آل عمران .

باجتنابه ، وإنَّ قدر الله ينفذ عن طريق حركة الإنسان ، وتفاعله مع الواقع ومع الحياة والأحداث .

قال الله جل ثناؤه : ﴿ إنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُـمْ يُعَذِّبْهُـمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِـمْ ، وَيَنْصُـرْكُمْ عَلَيْهِـمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَومٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ الله على مَنْ يَشَاءُ والله عَلِيْمٌ حكِيْمٌ ﴾[2] .

ومن ثمرات ايجابية الثقافة الإسلامية أنها تشعر الفرد المسلم بضخامة مسؤوليته وبأهميته في الحياة الدنيا وفي أحداثها ووقائعها ، وأنه لم يخلق عبثاً ، وليس شيئاً تافهاً وإنما هو قدر من أقدار الله ، بتحركه تتحقق إرادة الله ومشيئته ، وإن وجوده فوق الأرض يستوجب عملاً إيجابياً بناءً مستمراً دائماً في ذات نفسه ، وفي الآخرين من حوله ، وهو خليفة الله في أرضه ، والخلافة تقتضي شكر المنعم المتفضل دائماً بأداء الواجبات الروحية والمالية ، وأن يحرص على تطبيق منهج الله وشريعته في الحياة الإنسانية ، وأن يجاهد بنفسه وماله ، بيده ولسانه ، بقلمه وفؤاده لدفع الفساد عن الأرض .

ومن ثمرات إيجابية الثقافة الإسلامية أيضاً أنها تعلي من شأن الفرد المسلم وترفع من قيمته في نظر نفسه وفي نظر الآخرين ، المحبين ، والمغرضين ، وترفع من اهتماماته وغاياته وأهدافه ، فيأبى أن يزاحم الناس من أجل مطالب قريبة ، أو يقاتلهم حرصاً على منافع شخصية ، إذ المسلم أبعد هدفا من هذا كله . . إنه يحمل عبأً ثقيلاً وأمانة عظيمة ورسالة قدسية تحلو في سبيلها التضحيات ، ويعذب من أجل العذاب والجهاد . وهو يعمل بصمت وجدية وإخلاص من أجل أن يلقى الله تعالى وقد أدى الأمانة وسلك سبيل المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ونهج في الدعوة نهجه ودعى إلى هديه .

خاصية الواقعية المثالية :

تمتاز الثقافة الإسلامية بميزة فريدة عظيمة تميزها عن سائر الثقافات ، هذه

---

(١) سورة الرعد الآية (١١) .

(٢) سورة التوبة الآيتان/ ١٤ ، ١٥ .

الميزة هي (الواقعية المثالية) ذلك لأن الثقافة الاسلامية تقوم أساساً على تصور اعتقادي يمتاز بالوضوح والصحة ، والصدق والواقعية ، ويفسر الحقائق الوجودية والآثار الإيجابية تفسيراً صادقاً واقعياً ، لا غموض فيه ، ولا لبس ، ولا مغالاة فيه ولا مجافاة للواقع .

فالعقيدة الإسلامية تبين حقيقة التوحيد الإلهي ، وأنه سبحانه هو الخالق المتصرف بالكائنات . . وما نرى من سماء وأفلاك ، وبحار وأنهار ، وإنسان ونبات ، وحيوان وطير ، أدلة على وجود الله وتفرده بالخلق والقدرة والإبداع . . سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العليا . . قال الله جل شأنه : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِيْنَ تُمْسُوْنَ وَحِيْنَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِيْنَ تُظْهِرُونَ . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّت ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ ثُمَّ إذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إنَّ في ذَلِكَ لآيات لِقَوم يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعالمينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إذا أَنْتُم تَخْرُجُونَ ، وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ . وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَليهِ ، وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَهُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] .

فالثقافة الإسلامية (واقعية) ، لأنها تقوم على التصور **العقيدي** للحقيقة الإلهية ، وعلى بيان آثار قدرة الله في المخلوقات المشاهدة المرئية[2] .

وهي (واقعية) أيضاً ، لأنها تعرف الإنسان على حقيقة الكون ، وتدعوه للتعامل معه على النحو الذي بينته العقيدة الإسلامية . . فالكون ما هو إلا هذا

---

(١) سورة الروم (١٧ - ٢٧) .

(٢) خصائص التصور الإسلامي للأستاذ سيد قطب ص ١٩٠ .

الوجود الخارجي الذي ندركه ، والذي يتكون من السماوات والأرض والنجوم والكواكب والليل والنهار ، والنور والظلام ، والمطر والأحوال التي يتعرض لها هذا الكون .

فالكون - في المحيط الثقافي الإسلامي - كل الخلائق التي أبدعها الله ، وهي خاضعة له مسخرة بأمره عابدة له . .

قال سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ ، وجَعَلَ الظُّلمات وَالنّورَ ، ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(١) .

وقال : ﴿ إنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلى العَرْشِ . يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ . ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوْراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالحِسَابَ . مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ إلاَّ بالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إنَّ في اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَمَا خَلَقَ الله فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَّقُونَ ﴾(٢) .

والثقافة الإسلامية (واقعية) ، لأنها تفسر حقيقة الإنسان ، فهو إنسان مخلوق له وجوده الواقعي وهو جزء من الكيان البشري الذي له حقيقة واقعية موجودة .

والإنسان ذلك المخلوق الكريم يتكون من كيان خاص له جسمه وعقله وروحه ونفسه وقلبه ، وله أشواقه وميوله وأهدافه ، وله غرائزه ومتطلباته ، وهو في عيشته يشبع غرائزه وينمي ميوله ويسعى لتحقيق أهدافه .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا الله الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ . إنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾(٣) .

---

(١) الأنعام/ ١ .

(٢) يونس/ ٣ ، ٥ ، ٦ .

(٣) سورة النساء الآية/ ١ .

والإنسان السوي في اعتبار الثقافة الإسلامية هو ذلك الإنسان العاقل المفكر المتزن الذي يلبي أشواقه الروحية ، وتطلعاته العاطفية ، ويشبع غريزته الفطرية في حدود ما شرع الله وما أباح ، وهو الذي يؤثر في غيره ، ويبذل الخير للنـاس ويحملهم على قول الحق والجهر به ، وعلى عمـل المعـروف ويحببهـم فيه ، ويبعدهم عن الشر ومواطنه . .

وقد خالف الفطرة الالهية والسنة المحمدية كل من قبع في صومعة منقطعاً عن الحياة وما فيها من شؤون وأحداث بدعوى التفرغ للعبادة يظن أنه كيان روحي فقط ، وقد خالف الفطرة الإلهية والنهج المحمدي كل من يظن أنه جسم ولحم ودم وعصب وغريزة فقط ، وعليه أن يطلق العنان لغرائزه تجوب في كل المواطن وتنال من كل مأثم ، اعتقاداً منه أن الحياة الدنيا فرصته الـوحيدة ، فليغتنمهـا لإشبـاع غرائزه وتحقيق أهوائه ، غير مبال بما يقترف من معاصي وآثام ، وما يصدر منه من جنح وجرائم . .

هذا الإنسان الغبي ، وذلك الإنسان المغالي كلاهما خارجان عن الفطـرة السليمة والشرع القويم ، لأنهما فقدا الاتزان والتعقل والحكمة في التصرف وفي السلوك وفي الاعتقاد . . وخير دليل على ما أقول قصة أولئك النفر الثلاثة الذين أتوا بيت رسول الله ﷺ فقال أحدهم : إني سأقوم الليل ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فسأصوم ولا أفطر . وقال الثالث : أما أنا فلن أتزوج النساء . . فلمـا سمـع رسول الله ﷺ بمقالتهم ، بين لهم فساد رأيهم وانحراف تصورهم وردهـم إلـى الحقيقة والواقعية قائلاً :(إني والله لأخشاكم وأتقاكم له ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) .

والثقافة الإسلامية (واقعية) لأنها تقدم منهجاً واقعياً شاملاً للحياة البشرية فوق الأرض . إذ أن الأحكام المنهجية والمعالجات الواقعية التي استنبطـت من كتاب الله وسنة رسوله تتعامل مع الإنسان ذي الوجود الواقعي ، وتتعامل مع الحياة الإنسانية على حقيقتها وواقعيتها .

هذا المنهج الواقعي قد أخذ باعتباره فطرة الإنسان وميوله ، ورغائبه ونزعاته واستعداداته وفضائله ، وقوته وضعفه . وهو لا يقلل من قيمة الإنسان ولا يهدر من كرامته ، ولا يستهين بدوره في الحياة ، أو في عبادته لله تبـارك وتعالـى ، أو في

خضوعه له . وكذلك لا يرفع من قيمته ومن مكانته ويجعله في مرتبة أعلى أو أقدس من الإنسان ، بل هو مخلوق لله ، وقد خلق ليقر بوحدانية الله ، وليخلص له العبادة[1] .

ونلاحظ أن هذا المنهج الواقعي قادر على أن يأخذ بالإنسان إلى أرفع مستوى وأعلى قمة يمكن أن يبلغها الانسان ، إنها مرتبة العبودية لله تعالى وإنها لمرتبة طاهرة رفيعة قد أرادها الله لبني البشر . قال تعالى : ﴿ وقالوا : مال هَذا الرَّسُولِ يأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يأْكُلُ مِنْهَا ..وَقَالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رجلاً مَسْحُوراً انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيْعُونَ سَبِيلاً . تَبَارَكَ الَّذي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ : جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾[2] . ﴿ وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ . وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾[3] .

في هذه الخصائص التي سبق عرضها ومناقشتها تظهر قيمة الثقافة الإسلامية ، وتبرز مكانتها الرفيعة السامية من بين سائر الثقافات الأخرى . . تلك الثقافات التي تقلل من منزلة الفرد وتحط من قدره . ولا ترفعه إلى المرتبة اللائقة به ، لأنها تعتبر الإنسان المكون من الجسم والروح غلطة منكرة . . وإن الإنسان المثالي ـ في نظرها الخاطىء ـ هو الذي تخلى عن رغباته وأهوائه .

كما تظهر جدية الثقافة الإسلامية وقوتها ، وقدرتها على توجيه الإنسان والمجتمع الوجهة الخيرة الجادة الدائبة العاملة . إذ أنها تنمي الاستعدادات الفطرية والمواهب الإنسانية وتدعو إلى التعاون على التقوى ، وإلى التعاون لإنتاج كل ما من شأنه أن يسعد البشرية ويخدم الإنسانية . .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي . ص ١٩٤ .
(٢) الفرقان/ ٧ ـ ١٠ .
(٣) الإسراء/ ٩٠-٩٣ .

المبحث الثاني

أهمية دراسة الثقافة الإسلامية

إن دراسة أي علم من العلوم يؤثر في ترقية مشاعر الفرد ونمو مداركه وتفتح أحاسيسه ، وتنبه مواهبه وانطلاق طاقاته ، وصقل ميوله وازدياد حركته ونشاطه ، كما يؤثر أيضاً في إحداث تفاعل ذاتي في داخل نفس الفرد ، وقد يتخذه قاعدة يبني عليها معارف جديدة ، أو ينطلق منه إلى آفاق بعيدة . وقد يؤدي به إلى اكتشاف حقائق علمية مجهولة . وبهذا تتسع دائرة المعارف الإنسانية وتزداد العلوم دقة وعمقاً وعطاء وإنتاجاً . . وبقدر ما تكون الدراسة دقيقة وعميقة وبقدر ما يكون البحث وافياً شاملاً بقدر ما تعم الفائدة من العلم والبحث . . فكيف إذا كانت الدراسة تتعلق بكيان الفرد وبشخصيته الإسلامية ، وبماضيه المجيد ، وبتراثه العظيم وبالأسباب والعوامل التي تربط بين تاريخه وواقعه ومستقبله ، وبالظروف التي أحاطت بتلك الشخصية عبر قرون عديدة من الزمن . .

إن المسلم الذي يدرس ثقافته دراسة واعية ناضجة يشعر بأنه ليس كياناً مستقلاً ولا فرداً قائماً بذاته يعيش حقبة من الزمن ثم يعتريه الموت والبلى ، كلا ، وإنما هو لبنة هامة مؤثرة فاعلة في بنيان ضخم امتد قروناً طويلة وسيمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . وهو بهذا الشعور ، وبهذا الإحساس يستطيع أن يضيف إلى ما عمله السابقون ويستطيع أن يمثل الشخصية الإسلامية في عالم الضمير وفي واقع حياته الخاصة وفي واقع مجتمعه ، ويستطيع أيضاً أن يوصل الأمانة إلى من بعده ، ويمدهم بمعارف جمة وحقائق علمية ثابتة ، ويمهد لهم سبيل الاستمرار في تشييد النهضة العظيمة .

إن المسلم ليس فرداً مستقلاً يعيش من أجل هواه النفسي ومأربه الشخصي

وأمنيته القريبة ، وإنما يعيش من أجل تحقيق هدف أمثل وأكمل وأعظم ، إنه يعيش لتحقيق (عبادة الله في الأرض) ، يعيش ليبين للآخرين سبيل السعادة الحقة والراحة الكبرى في الدنيا والآخرة . . لذا فهو يمنح الناس جميعاً كل ما يستطيع من عطاء وكل ما يملك من قوة وخير .

وتتجلى أهمية دراسة الثقافة الإسلامية في النقاط التالية :

١ ـ بيان الازدهار الحضاري للأمة الإسلامية .

٢ ـ تأثير الثقافة الإسلامية بالغرب .

٣ ـ بيان الأدواء التي حلت بالأمة الإسلامية .

٤ ـ تفاعل المسلم مع مبادئه وقيمه .

٥ ـ الأساسيات التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية .

٦ ـ دور الثقافة الإسلامية في العصر الحديث .

الازدهار الحضاري للأمة الإسلامية :

لقد عاشت الأمة الإسلامية قروناً طويلة عزيزة الجانب ، مهيبة في سلطانها وسياستها ، تتقدم الركب الحضاري الإنساني ، وتحمل بيدها مشعل الهداية والنهضة العلمية والخلقية والإدارية . . بكل مقوماتها ، فالعلوم الدينية والدنيوية قطعت شوطاً بعيد المدى من الرقي والرفعة ، والحالة الاقتصادية في أوج تطورها وازدهارها ، تدر الأرباح الطائلة ، وقد يسير الإنسان من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، لا يجد في أقطار البلاد الإسلامية فقيراً محتاجاً أو مظلوماً مهيض الجناح .

في هذه الفترة الزمنية حملت الأمة الإسلامية الحضارة إلى العالم كله ، وإلى الدنيا بأسرها ، حملتها بالعلم والخلق ، ولم تحملها بالسيف والقوة ، ولم يكن ثمة إكراه على العقيدة الخالدة ، لأن المبدأ الذي نتمسك به هو قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِيْ الدِّينِ ﴾[1] ولكن الجمال والجلال والقيم والمثل العليا لا بد أن تؤثر

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٦)

في النفس الإنسانية وبخاصة إذا كانت تعيش في ضيق وشظف ، وبخاصة إذا ما قارنت هذا الرقي وهذه القيم أوضاع مناقضة لها من حيث الجوهر والأسلوب من جور وظلم واستعباد الإنسان أخاه الإنسان ، ومن تسلط القوي على الضعيف ، ومن استغلال الغني للفقير .

وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجاً حينما رأوا صفاء العقيدة وسموها وحسن تطبيقها ، وحماس المؤمنين بها وثقتهم بعدلها وعطائها ، أدركوا تماماً أن هذا الدين هو الذي ينشىء الفرد والجماعة ، إنشاء جديداً ، وأدركوا أنه هو الدين الذي يخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

تأثر الغرب بالثقافة الإسلامية :

استمدت بذور النهضة الأوربية غذاءها من علماء المسلمين الذين تعلم الغربيون على أيديهم في جزر البحر الأبيض وفي الأندلس[1] . . . وسعى الغرب لإصلاح الأوضاع الدينية للكنيسة تأثراً بعقيدة التوحيد الإسلامي ، وثاروا على الكنيسة التي كانت تقف موقف المعادي المحارب لكل اكتشاف علمي ، بعد ما رأوا سماحة الإسلام ودعوته الملحة لطلب العلم ونشره في كافة الأوساط ، واعتبار العلم دعامة هامة وقوية لبناء عقيدة الفرد . . . ووقف الغربيون في وجه الإمبراطوريات ، حينما بهرتهم عدالة الإسلام ، ونادوا بحقوق الإنسان تأثراً بمبدأ الإسلام الذي يدعو للمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وأنه لا يفضل عربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى ، وبما يقدم من عمل خير كريم لإصلاح المجتمع . . وهكذا فإن النهضة الأوربية بكل ما دعت إليه وما نادت به ما هي إلا أصداء لتأثرها بالاسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة . . إنها تأثرت به تأثراً كبيراً وعميقاً ولكنها أرادت أن تكوِّن لنفسها شخصية مستقلة عن الدين الإسلامي ، فلمت شتات أمرها وأسكتت أفواه العارفين للحق ، ودعت إلى النهضة الأوربية ، فقام للباطل دولة وصولة ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾[2] .

---

(١) أساليب الغزو الفكري ص ٥ .

(٢) ٩٩ يونس .

الأدواء التي حلت بالمسلمين :

حينما بدأ الغرب في نهضته ، بدأ الشرق الإسلامي في كبوته ، وكان لذلك أسباب بعضها يرجع إلى المسلمين أنفسهم ، وبعضها يرجع إلى أسباب خارجه عن إرادتهم .

أما الأسباب التي ترجع إلى المسلمين أنفسهم :

فتتجلى بأن الله تعالى لم يكن مبدلاً نعمه التي أنعمها على عباده حتى يبدلوا ما بأنفسهم من خير إلى شر ومن هدى إلى ضلال ومن قوة عسكرية وإدارية إلى ضعف ينتاب الجهاز العسكري والإداري ، ومن قوة خلقية وتمسك بالقيم والمبادىء إلى فساد خلقي واستمتاع بالمغنيات وبالشعر الرخيص ، ومن إقامة شعائر الله وتطبيق حدوده إلى التهاون في إقامة الشعائر وإلى الاستهانة بإقامة الحدود ، ومن القيام بالجهاد الى التقاعس عن هذه الفريضة والركون إلى ملذات الحياة الدنيا والاستمتاع بمباهجها . . وهكذا حصل التغيير النفسي والتبديل الذي أتى من المسلمين أنفسهم . فطبق الله سنته فيهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1] ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[2] ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[3] ونسي المسلمون أن الله جعلهم خير أمة لما اتصفوا به من إقامة حدود الله ، ولما عاهدوا الله عليه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾[4] ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[5] ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[7] ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[7] .

---

(١) الأنفال/ ٥٣

(٢) النحل/ ١١٢ .

(٣) الرعد/ ١١ .

(٤) فاطر/ ٣ .

(٥) النحل/ ٨١ .

(٦) آل عمران/ ١٠٤ .

(٧) آل عمران/ ١١٠ .

ويمكن أن ألخص أهم عوامل ضعف المسلمين التي ترجع إلى أنفسهم في النقاط التالية :

١ ـ بعد المسلمين عن كتاب الله وسنة رسوله ، وركونهم إلى الملذات العاجلة المحرمة شرعاً ، وانتشار العادات الفاسدة ، كالكهانة والسحر ، وكعادة الاختلاط بين الرجال والنساء في العمل ، وفي السهرات الأسرية .

٢ ـ تعطيل حدود الله الواجب تطبيقها على من تجرأ على حرمات الله .

٣ ـ التهاون في إقامة شعائر الله ، كالتهاون في أداء الصلوات على وقتها أو في جماعة .

٤ ـ محاولة استيراد أنظمة غريبة عن مبادئنا الإسلامية وتطبيقها في المجتمع الإسلامي بدلاً من تطبيق شريعة الله ، ظناً منهم أن هذه الأنظمة المستوردة اكثر ملاءمةً للعصر الحديث .

٥ ـ الشعور الانهزامي الذي وسوس لبعض المسلمين بأن ما عند الناس أفضل مما نملك من قيم ومثل وخلق وعلم .

٦ ـ تقليد كثير من المسلمين للغرب والشرق غير الإسلامي بالأقوال والأعمال التي شاعت واشتدت وطأتها على المسلمين فأصبحت شريعة يحتكم إليها ، كحفلات الزواج والمآتم مثلا .

٧ ـ الفرقة التي لعبت دوراً كبيراً في تمزيق أوصال الوطن الإسلامي وانفصام عرى الأمة الإسلامية ، وكان للمبادىء الجوفاء المستوردة اثر كبير في هذه الفرقة ، ومن أهم تلك المبادىء غير الإسلامية : المناداة بالقومية ، والدعوة للوطنية ، والدعوة للعلمانية ، وغير ذلك مما نهش في جسم الأمة فقطعها إرباً إرباً . . .

٨ ـ التخلف عن مضمار العلم التجريبي[1] الذي بلغ مرتبة لا يستهان بها في العالم

---

(١) ومن الأمور الثابتة تاريخياً ان العرب هم البناة الأولون للعلم التجريبي ، فبرز في علم الطب ابن سينا وابن رشد وفي علم الحساب والنجوم ، مسلم بن احمد ، وأول من نبغ في الكيمياء جابر بن حيان ، وأول من نبغ في الجبر وقدم حلولاً هندسية لمعادلات من الدرجة الثانية ، محمد بن موسى الخوارزمي ، واول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، واخترع محاولة الطيران عباس بن فرناس ، وأول من عارض نظرية أقليدس وبطلموس بشأن الابعاد وكان على وشك ان يكتشف العدسة المكبرة ابن الهيثم ، وكان الذي انشأ حساب

غير الإسلامي ، ورضي المسلمون بالاعتماد على غيرهم في هذه العلوم دون أن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات علمية جماعية محاولة للإبداع في العلوم التجريبية والكونية . وإذا وجد من المسلمين من يصل الى معرفة شيء من أسرار العلوم فإن العلماء غير الإسلاميين قادرون على طمس اللمسات الإسلامية ، وجعل ما وصل إليه المسلم داخلاً ضمن إطار معارفهم يخدم شخصيتهم ، ويحقق أغراضهم .

٩ ـ انحراف البعثات العلمية عن أغراضها الحقيقية التي بعثت من أجلها ، وعدم الاستفادة من الحقائق العلمية سواء كان في مجال التسلح وصناعة الأسلحة والتدريب عليها أو في مجال التقنية العلمية ، والاكتفاء بالانجراف في تيار الفساد الخلقي والاجتماعي . وهذا يعود بالوبال والخسران على المجتمع الاسلامي بعامة .

هذه هي أهم العوامل الداخلية التي أدت إلى إضعاف الروح الإسلامية في نفوس أبنائها . أما العوامل الخارجية فسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى مفصلاً في موضوع التيارات المعادية للإسلام .

ولكن المسلمين بما أوتوا من عقيدة التوحيد الصافية السائغة ، وبما تعهد الله سبحانه من حفظ كتابه العظيم الذي هو النبع الخالد للإسلام عقيدة ومنهج حياة ، فإنهم سيتغلبون على كل قوة مادية مهما عظمت وسيحطون كل الوسائل التي توجه لطعنهم . . وسينتصرون على جميع دعاة البغي والعدوان مهما تآزرت ضدهم ، بشرط أن يتحصن المسلمون بثقافتهم الإسلامية وأن يعتزوا بقيمهم ومبادئهم وأن ينقلوا تعاليم دينهم إلى الواقع العملي فيطبقوها على أنفسهم وعلى مجتمعهم .

◀ المثلثات الحديث البيروني وأمثال هؤلاء كثير من اعلام الفكر الاسلامي الذين كانت لهم مكانة رفيعة في العلم التجريبي في وقت كان الغرب فيه يتخبط في ظلام الجهل ويعتمد أساساً على تتبع آثارهم وترجمة مؤلفاتهم . وقد اعترف بذلك (روجر بيكون) الذي تعلم هذا المنهج في الجامعات الاسلامية في الأندلس وجاء سميه (فرنسيس بيكون) بعد ذلك ليؤكد هذا الاعتراف ويشرح هذا المنهج الذي كان ابرز دعائم النهضة الأوربية الحديثة في المجال العلمي . والقضية مستفيضة لدى الباحثين من شرقيين وغربيين . فليعلم من ذلك ان تخلف المسلمين اليوم انما هو تخلفهم عن بعض خصائصهم الذاتية في الكشف العلمي .

تفاعل المسلم مع ثقافته :

ومن هنا تبرز أهمية دراسة الثقافة الإسلامية ، تلك الدراسة التي تجعل من المسلم قوة منفعلة مع مبادئه وقيمه، قوة تثبت كيان الأمة الإسلامية على وجه البسيطة ، قوة تقلع الباطل من جذوره . قوة ترفع راية التوحيد ، وتعلن للملأ جميعاً أننا بالإسلام نحيا ومن أجله نموت ، أننا أمة لنا خصائصنا المتميزة ، ولنا وجودنا الحضاري ولنا تاريخنا العريق ، الذي يحمل أروع صفحات المجد والعزة . . وإننا فوق هذا كله أمة لها من الأيادي البيضاء على البشرية جمعاء ما لا ينكره إلا مكابر جاحد . وأن المبادىء الإسلامية والأصول العقيدية التي صنعت لنا المجد الزاهر والحضارة العريقة الأولى ما زالت موجودة بيننا وقادرة بإذن الله على أن تضعنا في المكان نفسه الذي كنا فيه أيام الراشدين ، وأيام الأمويين في المشرق والأندلس ، وأيام العباسيين والأيوبيين والعثمانيين فاتحي القسطنطينية .

وعلى هذا فالثقافة الإسلامية إنما هي فكرنا ، وهي درعنا الواقي في مجابهة الصراع الفكري العالمي ، وهي الحصن المنيع الذي يرد عنا كل التحديات الحضارية التي تهدد كياننا الحضاري وشخصيتنا الثقافية ، ومن واجب كل مسلم أن يدرك بوضوح وعمق معنى الثقافة الإسلامية ، وأن يتجاوب مع المبادىء الإسلامية ، وأن يطبق المنهج الإسلامي على نفسه وعلى أسرته وعلى مجتمعه . .

وإننا حينما نقف متمسكين بثقافتنا الإسلامية ، متفاعلين مع مبادئها الحضارية ، ملتزمين حدود الله ، عارفين بكل ما يدور حولنا من مؤامرات ومخططات شرقية شيوعية ملحدة ، أو غربية علمانية ، وحينما نكون أقوياء في عقيدتنا ، متراصين في صفوفنا ، فإننا نستطيع أن نحمي أنفسنا من خطر أعدائنا ، وحينذاك تتهاوى كل معاول العدو وأسلحته وقد باءت بالإخفاق الذريع .

الأساسيات التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية :

١ ـ تستطيع الثقافة الإسلامية أن تقدم تصوراً إسلامياً شاملاً للحياة ، بما فيها من إنسان وكون .

٢ ـ إن الثقافة الإسلامية تصل حاضرنا ومستقبلنا بماضينا الزاهر المجيد مادياً وروحياً .

٣ ـ إن الثقافة الإسلامية كفيلة بإحياء الانتماء إلى الإسلام مبدأً وشريعة وإلى الأمة الإسلامية سلوكاً وخلقاً .

ومن هذه الأساسيات وغيرها تستمد الثقافة الإسلامية مكانتها وأهميتها في حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة .

دور الثقافة الإسلامية في العصر الحديث :

إن أصول الثقافة الإسلامية حقائق كلية كبرى صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان وهي غير قابلة للتغيير ، وأي دعوة تدعو إلى تغيير ولو حرف واحد منها هي دعوة باطلة مضلة ، يجب القضاء عليها في مهدها ، ذلك لأن هذه الأصول إنما هي كتاب الله وسنة رسوله ، وما فيها من قواعد وأحكام واضحة صريحة وفي تنفيذها على النحو الذي أراده الله تحقيق لمصلحة العباد . ويتفرع عن هذه الأسس والأصول مسائل معاشية وتطبيقات سلوكية في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وهذه المسائل يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة في التطبيق ، وأذكر مثالاً توضيحياً على ذلك « الشورى » في الاسلام وهي من المبادىء الثابتة شرعاً والمقررة في نصوص القرآن الكريم ، وفي تطبيق هذا المبدأ التزام لأمر الله ، ولكن أسلوب التطبيق وكيفية التنفيذ يمكن أن يختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأعراف ذلك لأننا لا نجد نصاً ملزماً يبين أسلوباً معيناً في تنفيذ قاعدة الشورى ، والذي يحدد هذا الأسلوب حسب مقتضيات العصر هو الفكر الإسلامي ، أو الثقافة الإسلامية .

وعلى هذا فالثقافة الإسلامية يمكن أن تقوم بدور تطوير الأساليب والوسائل لتطبيق الأحكام الشرعية ، والقواعد الثابتة التي لا تختلف باختلاف العصر والمجتمع . . وأذكر مثالاً آخر يبين دور الثقافة في تطوير المناهج والطرق (الربا) فإنه محرم شرعاً ولعن الله المتعاملين به وكاتبه وشاهديه ، وعلى هذا فكل مؤسسة وكل بنك يقوم على أساس التعامل بالربا يعتبر محرماً ، ولا يجوز لدولة إسلامية أن تسمح لإقامة البنوك الربوية في أرضها وديارها ، ولكن هناك نظام آخر مصرفي يقوم على غير الربا كالمؤسسات المصرفية الإسلامية والتي تسمى (البنوك اللا ربوية) ، ويأتي دور الثقافة الإسلامية هنا في غاية الأهمية ، فهي التي تبين الأسس العامة ، لإنشاء مثل هذه المصارف الإسلامية ، وهي التي تحدد الخدمات

المصرفية التي يمكن أن تقدمها هذه البنوك دون اللجوء إلى عملية الربا في أية جهة من اتجاهاتها [١] .

وهناك مثال آخر حيوي وعصري هو (عقد التأمين التجاري) وهو من العقود التي نظمتها التشريعات الوضعية ، وبعد التكييف الفقهي لهذا العقد استبان أنه يهدف إلى الحصول على المال في حالة تحقق الخطر ، وأن شركات التأمين تبتغي اكتساب أكبر قدر من الأرباح من جراء هذا العقد ، وهو فوق هذا كله بيع نقد غير محدد بنقد بالذمة . فهو يتضمن من هذه الناحية الغرر والربا ، ولهذا فإن (التأمين التجاري) غير معتبر شرعاً ، ولكن هناك أنواعاً من التأمين تقوم على فكرة التعاون والتكافل الاجتماعي ، ولا يهدف المؤمن من وراء هذا التعامل الربح ، كتأمين الحكومة المعاش للموظف . وعلى العلماء من الفقهاء والمتخصصين بالاقتصاد الإسلامي وغيرهم من رجال الفكر في الاسلام أن يقوموا بوزن العقود الجديدة وسائر ضروب التعامل الطارئة المستخدمة بالمعيار الاسلامي ويبينوا للناس ما يحل وما يحرم من ذلك وما يتفق مع الأحكام وما يجافيها . وبذلك يصبح المسلمون على بينة من أمرهم ، فإن العلم دين ، والقضايا المستحدثة إن كانت مخالفة للشريعة فلا يجوز التعامل بها .

وبهذا الدور الذي تقوم به الثقافة الإسلامية في الوقت المعاصر ، فإنها تخدم الأهداف العامة للشريعة الإسلامية في كافة ميادين الحياة .

فالثقافة الإسلامية التي تقوم بواجب بناء الإنسان المسلم ، تقوم في الوقت نفسه بواجب الدفاع عن حصنه ضد التيارات المعادية ، وبما أن هذه التيارات قد تتطور وتلبس أثواباً جديدة ، وتتخذ شعارات لها رنينها ، وتظهر بأسماء براقة ، وتوجد أساليب حديثة ، فإن الثقافة الإسلامية يجب أن تقدم الوسيلة الدفاعية المتطورة . وأن تستعد لكل خصم يريد أن يزيف الحقائق الإسلامية ، أو يشوه

---

(١) عقد التأمين في الفقه الإسلامي والقانون المقارن ، تأليف د . عباس حسني ص ٥

تكامل ونقاء التصور الإسلامي المنسجم [1] .

حينما حاول الشيوعيون نشر مبادئهم الهدامة في الشرق الإسلامي استعملوا كلمة (الاشتراكية) لتحل محل الشيوعية ظناً منهم أن استعمال تعبير مغاير يخفي نواياهم ومكائدهم يحقق لهم أغراضهم الخبيثة في البلاد الإسلامية ، ولكن الاشتراكية لم تحقق لهم النجاح المنشود ؛ حتى في أخص مجال يدعون إليه وهو النظام الاقتصادي وملكية الدولة لوسائل الإنتاج ، فلجأوا إلى استعمال تعبير آخر متطور ومخالف للأول وهو (اليسارية) زاعمين أن هذا المبدأ يمثل الأسلوب الثوري المعارض في أي بلد وجد ، وليس له علاقة في رفض دين التوحيد ، وإشاعة الإباحية والفوضوية الخلقية والاجتماعية . . وهكذا فان التيارات المعادية للفكر الإسلامي تلبس كل يوم لباساً جديداً ، وتتخذ أسلوباً متغيراً ، وهي في حقيقة أمرها تهدف إلى طعن المسلمين في ديارهم ، وفي عقيدتهم وفي أخلاقهم ، كما تهدف إلى تشويه البناء الإسلامي الكامل .

ولهذا فإن الثقافة الإسلامية يجب أن تتخذ الوسائل المتغيرة المتطورة التي تتناسب مع كل عصر وتتلاءم مع كل بيئة ، لتحمي الإنسان المسلم ، ولتحمي العقيدة الإسلامية ، ولترد كيد الأعداء [2] .

والثقافة الإسلامية زاد ضروري لكل مسلم يريد أن يعيش حياة إسلامية في ظل عقيدة التوحيد ، وهي سلاح قوي بيد كل مسلم يملك العزم الإيماني والإرادة القوية ليواجه تحديات العصر ، ويتغلب عليها . قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [3] فخير زاد للإنسان المسلم الواعي ثقافة إسلامية تحصن عقله ونفسه وأسرته ، ليتقدم في ركب الحياة ويعايش أحداث العصر .

ما الذي تقدمه الثقافة الإسلامية للإنسان المعاصر :

لقد وصلت الإنسانية اليوم في الجانب العلمي إلى كنوز ضخمة من كنوز المعرفة والتقنية (Tec hnology) ولكنها لم تصل إلى الأمن والاطمئنان الذاتي

---

(١) ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة د . عبد الحليم عويس ص ٢٥

(٢) المكان السابق .

(٣) سورة البقرة آية / ١٩٧ .

في الجانب الإيماني الروحي بل ما زالت تحس بالفراغ الداخلي الذي يولد قلقاً نفسياً رهيباً ، واضطراباً روحياً مريراً .

ذلك لأن الإنسان الغربي حينما وجد أن المنهاج التجريبي مفيد ، في مجال العلوم الطبيعية ، امتلكه الغرور والعجب ، وأراد أن يتخذ الواقعية المنطقية منهاجاً له في مجال الفكر والروحانيات ، فاعتمد على الحواس كوسيلة من وسائل المعرفة ، فما لمسه ورآه آمن به وما غاب عن بصره ولمسه وسمعه أنكره وجحده . ولم يقف في يوم ما ليفكر في أن عالم الروحانيات يختلف اختلافاً شاسعاً عن عالم المادة ، وما يقع تحت الحواس من العوالم الكونية ، لا تدركه الحواس في عالم ما وراء المادة ، وما وراء الطبيعة .

وكان هذا الجهل في تفهم عالم الروحانيات أثراً من آثار الثقافة الغربية وسبباً في شقاء الإنسان الغربي . . ونشأ عن هذه الثقافة أن انقطعت الصلة بين القيم الخلقية ، والآفاق الايمانية من جهة وبين الانسان من جهة ثانية ، ومن ثم فان حياته قد تحولت إلى مادة يدور في فلكها ، وإلى أرقام حسابية يلهث من أجل تحصيل أكبر رقم حسابي . . أما الإيمان بوحدانية الإله ، أما تحكيم القيم والمثل في حياته العملية والعاطفية ، فهذا لا وجود له عند الإنسان الغربي المعاصر . . ونتج عن عدم إيمانه بالروحانيات قلق نفسي أحسه الفرد الغربي داخل كيانه ، وشعور بالضياع أخذ ينتابه صباح مساء ، كما أحس بالاضطراب بين واقعه الذي يغرق بالمادة والعبث واللهو وبين نداءات فطرية خفيفة بين الحين والآخر تدعوه للالتزام بشيء من القيم والمثل في حياته . .

وإذا نظرنا إلى هذا الإنسان من زاوية الثورات التي قام بها ضد الظلم والاستبداد فإننا نجد أنه قد وضع نفسه تحت شعارات جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع .

وفي هذا التيه الذي يتخبط فيه الإنسان المعاصر غير المسلم حاول أن يتقمص شخصيات مختلفة لعلها توصله إلى شاطىء الأمان ، وتمنحه سعادة ضائعة ، وراحة نفسية مفقودة . . فتقمص الشخصية العلمية التي حددها هكسلي (Huxley) ، ثم الشخصية الجنسية التي رسمها (فرويد) ثم شخصية الرجل

الاقتصادي التي وصفها (ماركس) . . وفي جميع هذه المحاولات لم يتحقق للفرد الغربي ما يريد ، ولم يصل إلى السعادة الحقيقية ولا إلى الاطمئنان النفسي ، بل على خلاف ذلك زادته هذه المحاولات وتلك الثقافات حيرة وقلقاً وضياعاً [1] .

وعلى هذا يمكننا أن نقول : إن الثقافة الغربية قد أورثت الإنسان الغربي الانحراف الخلقي والضياع الذاتي ، والخواء الإيماني والفراغ الروحي . . وهذا ما يؤدي إلى عذاب نفسي داخلي يحس فيه الفرد في أعماقه ، فيختل التوازن في شعوره ومداركه ، التوازن الذي يجب أن يتحقق بين الواقع المادي للحياة وبين القيم التي يؤمن بها ، ولكن الإنسان الغربي يفقد هذا التوازن بين الواقع المادي الذي يعيشه وبين القيم التي تخلى عنها حتى اندثرت في طيات النسيان ، وغدت الحياة كلها في تصوره لذة عاجلة ومتعة عابرة . . ولم يبق أي أثر للقيم الروحية وللتصور الفكري . . وهكذا فقد شوهت الثقافة الغربية معالم الإنسانية لدى الفرد الغربي [2] .

وكذلك وحذوك الفشل بالفشل فإن الثقافة الشيوعية شوهت معالم الفرد الشيوعي ومسخت كيانه وجعلته نقطة تدور في دائرة فراغية حتى إذا ما تحسس نفسه وجدها أشلاء متهافتة متناثرة . . هذه الثقافة تفقد الإنسان ذاتيته وتقضي على مستقبله ، وتجعله يلهث وراء سراب ، فلم يصب من الدنيا حظاً جديراً بالكدح ، ولا يأمل في غد مشرق ، ولا في آخرة تعوضه ما فاته في دنياه [3] .

وهكذا رأينا كيف تتهاوى جميع الثقافات المعاصرة ، وتتساقط حاملة عنوان الإخفاق والخذلان ، دون أن تحقق للإنسان المعاصر أدنى راحة وأدنى أمن ، وهنا يأتي دور الثقافة الإسلامية لإنقاذ البشرية مما تعانيه من قلق وحيرة واضطرابات نفسية .

فالثقافة الإسلامية هي الدواء وهي العلاج للآلام الحقيقية التي يعاني منها الإنسان المعاصر ـ غربياً كان أو شرقياً ، رأسمالياً كان أو شيوعياً . .

---

(١) خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب . ص ٨٢

(٢، ٣) من تفسير ظلال القرآن . المجلد الثاني ص / ٢٥٠

يقول (C.Wright Mills) (إن زماننا لهو زمان القلق وعدم الاهتمام واللامبالاة بصورة لا تسمح للعقل أن يفعل مفعوله الهادىء ، ولا تسمح للحياء أو الشعور الرقيق النبيل أن يفعل مثله) (١) .

ويقول البروفسور (Z.Bouman):(مهما تختلف محاولات الإصلاح بين كونها جسورة أو خجولة ، بعيدة المرمى أو حذرة فإنها جميعاً تتفق على أن الأفكار الموجهة للحضارة أو الثقافة الجديدة ، (المنشودة) يجب أن لا يبحث عنها في الأشكال العادية أو المألوفة فإن المطلوب عمله ضرورة : لهو شيء أبعد مدى بكثير من مجرد إعادة تشكيل أو إعادة تنظيم للآراء السائدة) (١) .

وهكذا فإن الكتاب والمفكرين الغربيين يدركون تماماً الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي وصل اليه الإنسان المعاصر الغربي ، وهذا الاضطراب ناتج عما حشر في الفكر الغربي من زيف ، وما زين له من باطل ، وناتج أيضاً عن انحراف الإنسان نفسه عن الفطرة السليمة حتى أصبح الوصول إلى الحقيقة أمراً متعذراً صعباً يحتاج إلى ثقافة جديدة تختلف عما عرفه الغربيون والشرقيون من ثقافات مألوفة قاصرة عن إيجاد السلام النفسي والاطمئنان إلى حياة سعيدة . .

وهذه الثقافة التي تخيلها (بومان) والتي قال عنها إنها أبعد بكثير من إعادة تشكيل وإعادة تنظيم للآراء السائدة . . ما هي إلا الثقافة الإسلامية ، لكنه ما استطاع أن يصل إلى تحديد اسمها لأنه لم يتلق الصورة الحية الصادقة عن ثقافتنا الإسلامية . . أجل إنها هي وحدها التي تنقذ الإنسانية مما تعانيه من قلق وحيرة ، وهي وحدها البديلة للآراء السائدة في أوربا وأمريكا وفي البلاد الخاضعة للأنظمة الشيوعية .

يقول الكسيس كاريل في كتابه (الإنسان . . ذلك المجهول) : (إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا . فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العملية ، وشهوات الناس وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت

---

(١) مجلة المسلم المعاصر ـ عدد (١٦) بحث عن الدعوة للالتزام خالد اسحاق .

بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا) [1] .

إن مصير الإنسان في تلك الحضارة مصير مؤلم يتخبط فيه ، ونهاية مفجعة تتمثل في حلول انتحارية ومشاكل معقدة وتصرفات شاذة وتطورات مفسدة . . وكانت المذاهب الهدامة والقوانين الوضعية قد حفزت الكثير من مفكري الغرب العقلاء إلى الدعوة بحرارة لايجاد ديانة أو البحث عنها ، ليكون فيها خلاص الناس ويتحقق بها الهناء الذي يتوق إليه الناس في هذا العصر .

وأشير هنا إلى أقوال الذين بحثوا بإمعان وأوصلتهم نزاهة بحثهم - رغم أنهم من الأعداء - الى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ الإنسانية المعذبة التي تسير نحو الهاوية .

يقول (برنارد شو) : (إنه لن ينتعش العالم من كبوته إلا إذا أخذ بتعاليم الديانة الإسلامية ، ولا بد من هذه النتيجة من نحو قرنين من الزمان) [2] .

ويقول (جواكيم راي يولف) : (إننا إذا طالعنا مبادىء الاسلام ودرسنا قواعده بنظر عميق وبصيرة نافذة تجلت لنا حقيقة ناصعة وهي أن المسلمين المعاصرين قد بعدوا عن هذه المبادىء السامية بعداً شاسعاً ، وإن ظهرت فيهم روح قوية ذات عزيمة ثابتة توجههم للتمسك بركائز الإسلام ، فإن قوتهم ستبلغ عنان السماء ، ويكونون باعتبار الأخلاق والعلم والاجتماع منارة العالم كله . ولا يهمني الآن خطورة سياسة الإسلام ، بل أود أن أبحث ناحية من نواحيه المختلفة عله يتأمل فيها أحد من الأوروبيين ، إن هذه الأحكام والشرائع تتعلق بما فرضه القرآن الكريم على معتنقيه من التمسك بمبادىء الحق والخير وأوضح مثال على ذلك المحافظة على الصحة الجسمية العامة وبذلك أستطيع أن أقول : إن القرآن يمتاز بهذا الاعتبار امتيازاً بارزاً عن الكتب السماوية بتأكيد ، بالانسجام الكامل والوضوح التام وهذا ما يوجب على الأمم الأوروبية التي تدعي الثقافة والحضارة أن

---

(١) نقلا عن : مجلة حضارة الإسلام السنة العشرون العدد الثاني مقال بعنوان هذا الدين جمال وكمال للأستاذ محمد ابراهيم بخات .

(٢) كتاب (قالوا في الإسلام) ص ٣٥ .

تغبط المسلمين ، إن فضائل التعاليم الإسلامية بارزة بروز الشمس وخاصة أسسها . . وثمة سؤال يأتي في هذا السياق ، وهو : لماذا حاد المسلمون عن طريق الإسلام وانصرفوا عن التعاليم القرآنية ونبذوها وراء ظهورهم)[1] .

ذلك قول حق على لسان غير المسلم يشهد أن المستقبل للإسلام ، لأنه الدين الوحيد الذي يواكب الحضارة ، بل يحقق الحضارة الصحيحة .

ويقول المؤرخ (ولز) : كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنباً إلى جنب لهو شر مستطير على أصحابه يجرهم إلى الهلاك ، وإن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الإسلامية ، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن الكريم ، وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع فهو كتاب ديني علمي اجتماعي ، تهذيبي ، خلقي ، تاريخي . . وإذا طلب مني أحد أن أحدد له الإسلام فسأقول له : الإسلام هو المدنية ، وهل في استطاعة إنسان أن يأتي بدور من الأدوار التي ظهر فيها الإسلام مغايراً للمدنية والتقدم)[2].

فهذه شهادة ناطقة بالحق معبرة يصدق عن روعة الإسلام وحضارته المعطاءة ، وهذه شهادة تنم عن حقائق جلية تؤيدها وقائع الحضارة الغربية المفلسة من القيم العليا والمثل السامية الموافقة للفطرة الإنسانية .

وعلى هذا فإن الثقافة الإسلامية هي وحدها التي تحقق الرخاء والهناء للإنسان المعاصر بما تملك من مصادر أصلية حقيقية تعطي تصوراً متكاملاً وشاملاً عن الحياة ، فهي تحدد علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بالكون ، كما تحقق الانسجام في علاقات الكائنات ، وتجعلها جميعاً بما فيها الطبيعة مخلوقة لله الذي تفرد بالربوبية والألوهية .

والثقافة الإسلامية تهب الإنسانية حياة روحية سعيدة لا تستلزم الهروب إلى الصومعة أو إلى الدير ، ولكنها تدعو إلى أداء الطاعة والعبادة مع الجماعة .

---

(١) عن مقالة له نشرت بالمجلة الألمانية (دي هايف) ترجمها نشار أحمد الأعظمي ونشرها بجريدة الرائد بالعددين ٢٣ ، ٢٤ السنة (١٥) ، تحت عنوان (شهادة الأقوام على صدق الإسلام) .

(٢) كتاب (الإسلام أبداً) ص ٢٢ ، ٢٣ منقول عن مجلة حضارة الاسلام عدد (٢) السنة العشرون .

والثقافة الإسلامية تربأ بالإنسان أن يندفع وراء أطماع قريبة أو جشع مادي كما أنها لا تفسح مجالاً لحصول منازعات وخصومات وصراعات من أجل جر مكاسب مادية أكبر كما تصنع الثقافة المادية .

وفوق هذا كله فإن الثقافة الإسلامية تتيح لكافة المسلمين المؤمنين حياة راقية تتدرج في مدارج الكمال والتقدم العلمي لكي يبقى المسلم محافظاً على التوازن بين الحياة الفردية والحياة الجماعية ، بين المادة والروح ، بين الدنيا والدين .

والثقافة الإسلامية هي وحدها التي تلبي الحاجات المعقولة ، وتحقق الرغبات الضرورية للجنس البشري ، وهي في الوقت ذاته تمنع من الانحراف الخلقي ، أو الانهيار النفسي ، أو الجنوح السلوكي بما تتضمنه من توجيهات ربانية وإرشادات إلهية في القيام بالتكاليف التي تهدف إلى رفع الإنسان في سلم الارتقاء الذاتي والروحي والفكري والعاطفي ، بحيث يصبح المسلم المثقف ثقافة إسلامية قوة خير موجهة تألف وتؤلف وتؤدي واجبها راضية وتأخذ حقها قانعة . . وهنا تكمن عظمة الثقافة الإسلامية التي تتمثل في إقامة مجتمع صالح يعيش أفراده بأخلاقية حقيقية بين أخذ وعطاء ، وأمر بمعروف ونهي عن المنكر ، وإقرار للحق ورفع للظلم ، وترفع عن الرذائل والدنايا وتجنب للخبث والفحش . . وبهذا تتجلى مثالية الإنسان وواقعيته فهو يأخذ من الطيبات بحدود ما أحل الله ، ويبتعد عن كل خلق ذميم أو قول بذيء أو فعل مشين ، كما تتجلى شخصية المسلم المتميزة . وشخصيته الجماعية المرتبطة بالجماعة الإسلامية المتماسكة بها ، المتعاونة معها ، الراعية لتحقيق مصالح غيرها . . كما ترعى تحقيق مصالحها تماماً وهكذا تبقى الذات الإنسانية في إطار الثقافة الإسلامية في المستويين الفردي والاجتماعي عاملة ومؤثرة بتوازن والتزام .

وهذا العطاء الذي تغدقه الثقافة الإسلامية على الإنسان المسلم عطاء متفرد متميز ، لم تصل إليه أية ثقافة شرقية أو غربية .

والثقافة الإسلامية تقدم الكثير والكثير للبشرية ، إنها إنسانية العطاء . . (وان المجتمعات الصناعية المتقدمة منهجياً وتجريبياً ومادياً ، كالمجتمعات

الأوروبية والامريكية تجد في الثقافة الإسلامية مكاناً ، وتجد من يأخذ بيدها في هذا المكان ، فيرقى بها في المرتقى الصاعد إلى القمة العالية الرفيعة ، تلك القمة التي حققها الإسلام في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني) [1] .

وقبل كل شيء فإن الثقافة الإسلامية وحدها هي التي تحرر البشر من عبودية البشر ، لأنها تستمد تصورها ومبادئها ، وموازينها وقيمها ، وشرائعها وقوانينها ، وأوضاعها وتقاليدها من الله سبحانه ، فاذا أوجبت طاعة التشريع فإنما هي طاعة الله وحده ، وإذا أمرت بتنفيذ نظام فإنما تأمر بالخضوع لله رب العالمين . . وحده لا شريك له .

---

(١) تفسير الظلال لسيد قطب . المجلد الثالث ص ١٥٠ .